جمالية الوشم في طلل الشعر الجاهلي

أ. عمارة بوجمعة[1]

يختزل الوقوف على الأطلال في الشعر الجاهلي هموم الشاعر وتفاعله مع بيئة الصحراء ووضعه المعيشي الصعب . لقد كان لهذا التقليد الشعري قيمته التي تتصل بهوية المجتمع الجاهلي وبحقيقة سيره نحو جذوره، ونحو المصير الذي يحافظ على كيانه واستمراره. إن الطلل ليس مجرد برهة شعرية عابرة في القصيدة الجاهلية، أو مجرد صورة نمطية يقف عليها الشاعر لمعاينة الرحيل ووصف الأثر الذي بتركه الزمن في المكان، لكنه موقف يمتلك قيمته الرمزية في استثارة الذاكرة الفردية والجماعية وامتلاك الأثر الذي يشد الإنسان إلى المكان. والطلل بهذا معلم ثابت يرتبط به الشاعر لتثبيت وجوده وتأكيد هويته من خلال مجموعة من الرموز التي يشكل ضمنها الوشم علامة بارزة تحاول هذه القراءة تحديد سماتها الجمالية والأنثربولوجية في الخطاب الشعري الطللي.

1 – الطلل / الوشم:

لم يقتصر الوشم في مقدمات الشعر الجاهلي على شاعر بعينه، بل ظل جزءا من الميراث الشعري الذي تداوله الشعراء ووسموه بطابع عصرهم ،ومن ثم كان مرتبطا بقيمته وحمولته الرمزية في مخيال الشعر الجاهلي، وظل بجانب ذلك علامة لغوية ورمزية في الخطاب الطللي. فالشعراء الجاهليون كثيرا ما كانوا يربطون الوشم بمحتوى التجربة الطللية كقول طرفة بن العبد1:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهرة اليد

وقول أبي قلابة: 2

أمن أم القتول منازل كالوشم في ضاحي الذراع يكرس

وكذلك قول عبد الله بن سلامة الغامدي: 3

لمن الديار يتولع فيبوس قبيض ريطة غيرذات أنيس

أمست بمستن الرياح مفيلة كالوشم رجع في اليد المكنوس4 .

يؤشر الوشم في المقدمات الطللية على صلته بالمرأة والمكان. إن الوشم بالإضافة إلى كونه علامة للمتعة ورسالة للتواصل الإغوائي. هو دال ثقافي يحيل على التجربة الفكرية والوجودية والتواصلية للمجتمع الجاهلي. والوشم بهذه القيمة، يسم الخطاب الشعري الطللي بفاعليته الرمزية التي يستمدها من وجدان المجتمع الجاهلي ومن تقاليده الشعرية المرتبطة بتجربته الحياتية والوجودية لتجاوز شرط بيئته المحكومة بسيطرة الجدب وقفر الصحراء، ومن أمثلة ذلك ما جاء في قول زهير بن أبي سلمى[5]:

---

[1] –أستاذ مساعد – قسم اللغة العربية و آدابها – كلية الآداب و العلوم الإنسانية–جامعة سيدي بلعباس – الجزائر.

أمن أم أوفى دمنه لم تكلم بحومـــانة الدراج فالمتثلـم
ديارلها بالرقمتين كأنهـــا مراجع وشم في نواشر معصم 6

يشكل الوشم في أبيات زهير طابع الإستجابة الرمزية القوية أمام واقع اندراس المكان وعفائه فهو قـوة مضادة لفراغ المكان وسكونه.فإذا كان الطلل ينطلق من الفعل الزمن وهواجسه، فإن الوشم علامة تجسد الإمتـلاك الرمزي للمكان من أجل تجاوز الشعور بالموت والفناء، هكذا ظلت علاقة الوشم بالمكان علاقة رمزية تشد الذاكـرة إلى حركة الزمن وتحولاته. فالوشم حلم وتعويذة 7 ضد ما يهدد الإنسان وما يفني جسده ومكانه. مـن هنـا كـان فاعلية للجهد الإنساني الذي يريد أن يضفي على فراغ المكان حالة من القوة والثبات. إنه يشكل في هذه المسـافة كذلك نوعا من الإنتصار الرمزي على الدهر والموت فالوشم هو فعل الإنسان وسمته الحظارية التي تربطه بحركـة الحياة. وهو بهذه الدلالة يكون ركيزة لتجاوز حالة الشعور بالموت من خلال طاقته الأسطورية وفاعليته الرمزية.

2 – بلاغة الجسد الموشوم:

يحيل الجسد الموشوم في الخطاب الشعري الطللي على سياق أنتروبولوجي أخـذ فيه الوشم على جسـد المرأة أبعادا سحرية ودينية ارتبطت بوثنية المجتمع العربي قبل الإسلام وتطـابقت مـع زاويـة نظرتـه للطبيعـة والوجود. وكان لتأثير هذه الممارسة في العقلية الجاهلية أثرها على القول الشعري، فسياق الشعر الجاهلي يحيـل على قطاع مهم من هذه التقاليد التي اكتسبت طبيعة جمالية متصلة بذوق المجتمع و بواقع الوشم ومواقعـه علـى جســد المرأة.7 وإذا كانت طبيعة هذا الوشم، تؤشر في الخطاب الطللي على دلالات متعـددة تقـترن بسـياقه الجمالي والأنتروبولـــوجي، فإن هذه الدلالات تتضمن البعد الرمزي للمرأة وهو رمز يتصل بالجوهر الأنثـوي، بوصفة قوة على إشاعة روح الخصوبة والنماء وفي ذلك يشير زهير بن أبي سلمى 8 :

لمن طلل، برامة لا يـريم؟ عفا، وخـلا له عهد، قديم
تحمل أهـه، منه فبانـوا وفي عـرصاته، منهم رسوم
بلوح، كـأنه كفـا فتاة ترجع، في معاصمها، الوشوم

تأخذ دلالة الجسد الموشوم في نص زهير بن أبي سلمى صورة إيجابية، ترتبط بالرغبـة فـي إحـداث الحياة المتجددة ، وهو في هذه الصورة كذلك، فاعلية رمزية (تتصل بالجهد العقلـي والخيالي في سـبيل الإبقـاء على الطلل).9 ويعني ذلك أن الوشم لا يقتصر على سمته الجمالية ، فهو بإضافة إلى هذا السياق الذي يكون فيـه علامة للإغواء والتواصل والفتنة، هو بعد إشاري ينفتح من خلال اللغة على طابعه الطقوسي الموجه إلـى إبـداع الحياة الجديدة في غمرة الإندثار واللإحساس بالإنفصال والفقد يقول بشرين بن أبي حازم: 10

عفت أطلال مية بالجفـير فهـضب الوادبين فبرق إير
تلاعب الرياح الهوج منها بذي حـرض معالم للبصير
وجـر الرامسات بها ذيولا كـأن شمـالها بعد الدبور
رمـاد بـين أظار ثـلاث كما وشـم الرواهش بالنؤور 11

يوحد الخطاب الشعري في هذه الأبيات بين عنصر الرماد، بوصفه علامة ثابتة على مكـان الإنسـان ، وبين أثر الوشم على الرواهش، فيغدو الجسد- هنا- رمزا متضامنا مع ذاكرة المكان ومع رموز القبيلـة وقيمـها. إن السعة الدلالية التي تأخذها حركة الوشم على ذراع المرأة، تجلي عند الشاعر رغبة الإنتصـار الرمـزي علـى

فاعلية الزمن وحركته الموجهة ضد بقاء المكان والإنسان . إن حركة الوشم تخترق الفراغ وتحقق بفضل طاقتها الرمزية القدرة على إضفاء حالة من وجود الحي على المكان .

وإذ يقدم الجسد الموشوم نفسه في هذا الخطاب، بوصفه ذاكرة للمرأة وذاكرة للطلل، فإنه في الحالتين علامة تحيل على سماتها الجمالية، كما تحيل على ذاكرة الجماعة (القبيلة) وقيمها. فالمكان الذي يقدمه الموقف الطللي، هو قبل كل شيء مكان اجتماعي يتجاوز عند الشاعر مجرد الوصف والمعاينة إلى الإتصال الوجداني بالآثار التي تمنحه الإحساس بوجوده وانتمائه. وعند هذا، يصبح الجسد الموشوم علامة توطد انتساب الشاعر للقبيلة. يقول لبيد بن ربيعة: 12

لهنـد بأعلام الأعز رسـوم إلى أحد كأنهن وشوم13

فوقف نسلي فأكناف .ضلفع تربع فيه تارة وتقيم

يكشف اقتران الوشم في هذه الأبيات بالأعلام (الجبال) عن طبيعة الحلم الذي يشد علاقة الشاعر بالمكان. فالوشم يحيل من خلال فكرة (الجبال) إلى القوة والثبات، ذلك إن الجبال بالإضافة إلى الصورة التي يجسدها حضورها الفيزيائي، فهي تحتل دلالة أعمق في المجتمع العربي الجاهلي بحكم بيئته وحياته. ومن هنا ارتبطت عنده بالقوة والأمن والتمنع. وهي بهذه الدلالة تعمق فاعلية الوشم وتضاعف الإحساس القوي بالأشياء المفقودة في المكان، ويعني ذلك أن لغة الطلل لاتتأسس في الحضور الحقيقي للمرأة وإنما تتأسس في غيابها. وفي هذا التأسيس يظل الجسد الموشوم بدلالته المزدوجة: في حضوره وغيابه، يقترن بصورته الثقافية، فليس الوشم علامة فارغة على المكان، وإنما هو صورة للجسد الجاهلي وقد حملته ثقافته أبعادها الرمزية ومواصفاتها الجمالية والبلاغية، هكذا يبدو في هذا المعنى، دال رمزي يسم وجه القبيلة ومكانها، أو بالأحرى، هو الذي يوجد لها دلالتها. لقد لاحظ " لفي ستروس" هذا الإنزياح الدلالي، مثيرا أن الوشم لا يتخذ للزينة والتجمل فقط، بل هو أيضا مراسيل مشوية بالغايات الروحية والعبر.14 فهو يغدو بحكم هذه الوظيفة قادرا على تحقيق التواصل وتثبيت عناصر الذاكرة والمكان.

الإحالات:

1. طرفة بن العبد: الديوان. شرح وتقديم سعدي الضاوي، دار الكتاب العربي ط2 1977ص 88 .
2. الهذليون: ديوان الهذليين، تقديم أحمد الزين (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية) الدار القومية للطباعة والنشر، مصر 1965، 32/3 .
3. المفضل الضبي: المفضليات، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ط 6 لبنان، ص 105 .
4. تونع ويبوس وبياض ربطة أسماء أماكن. منكوس، أي نكس أعيد عليه الوشم .
5. زهير بن أبي سلمى: الديوان، صنعة أبي العباس ثعلب دار الكتاب العربي ط2 1997ص 32، 33، 34 .
6. النواشر: عصب الذراع، والمعصم: موضع السوار .
7. malek chebel: dictionnaire des symboles musulmans albin s.a 1995 (tatouage)
8. ينظر المفضل الضبي: المفضليات، ص 180، و لبيد بن ربيعة، الديوان دار الكتاب العربي ط3 بيروت 1997ص 11. 141 .وبشر بن أبي خازم:الديوان دار الكتاب العربي ط1 بيروت 1994، ص 76 وطرفة بن العبد :ديوان ص 180 .226 زهير بن أبي سلمى، الديوان ، ص 159 160 .
9. مصطفى ناصف، قراءة ثانية لشعرنا القديم، دار الأندلس ط2، لبنان 1981 ص 158.
10. بشر بن أبي خازم : الديوان .

11. الأظار: حجارة الموقد. الرواهش : أعصاب وعروق في الذراع المتؤور: دخان الشحم يعالج به الوشم
12. لبيد بن ربيعة: الديوان ص 174 .
13. الأعلام: الجبال. الأغر: اسم واد. أحد اسم جبل.
14. ينظر، لفي ستروس: الأنماسة البنائية. ترجمة حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي ط1، 1995 ص 278.